(c) http://nidaulhind.blogspot.in

بين بوذا وأبي العلاء

للدكتور محمد يحيى الهاشمي
(حلب - سورية)

الدين انصافك الأقوام كلهم وأى دين لأبى الحق ان وجبا
والمرء يعييه قود النفس مصحبة للخير وهو يقود العسكر اللجبا
أبو العلاء

توطئة

يالله ! ما أصعب حظ الانسان على الأرض ؟ ولد بين الآلام والأوجاع ، وتقلب بين الحرمان والمصاعب ، وذاق العذاب أشكالا وألوانا ، وهو لاينفك يتقلب بين الأوجاع المحضة والأسقام المهلكة ، والجروح النفسية الخفية من فراق حبيب ، وموت قريب ، وجفاء صديق وحب فاشل ، وخيانة خليل ، وسراب الآمال الكاذبة ، وأكثر ما يدمى الفؤاد تنازع البقاء وسفك دماء الأبرياء طمعا فى المجد الزائف . وآخرما يتجرعه المرء كأس الموت الحنظل . فأى شئ يدعو الى التفاؤل ؟ اتلك اللذات القليلة التى يتمتع بها البشر من طعام وشراب وغير ذلك ؟ أم بهرج الأنوار اللامعة الآن التى ستنطفئ عما قريب ، فيصبح الانسان جثة هامدة ، لافرق بينه وبين ذلك الحجر الجامد الملقى على قارعة الطريق والذى لاحسن فيه ولا حياة ؟ !

ها هو الانسان ! وها هى كرامته ! نعم حظه وكرامته ، فالحيوان بحسب ما يظهر لنا لايفقه من أمر الموت شيئا ، ولايؤثر فيه الألم هذا التأثير ، وكرامته ، لأن من فقد الاحساس ، فقد فقد الصفة البشرية ، ومن أضاعها ، فقد خسر الكرامة .

(c) http://nidaulhind.blogspot.in

لتخفيف هذا المصاب ولتلطيف وقعه، بعثت الأنبياء والحكماء، فوعدوا الانسان خيرا بحياة مقبلة، وما الحياة الدنيا الامتاع الغرور، وجسرلتلك الأبدية التى لاتعرف الموت ولا الأسقام والآلام، فاستبشر بذلك خلق كثيرون.

أما المؤمنون الحقيقيون فهم قليلون، والسواد الأعظم من الناس آمنوا ظاهرا وكانوا باطنا من الكافرين، لأن الفساد لايزال يطغى على البر والبحر، ولو كانوا من المؤمنين حقا لتبدلت الأرض غير الأرض، ولرضى كل انسان بما قدر له من الرزق والمجد، بل لزهد كثيرون عن متاع الحياة الدنيا وغرورها لأن الآخرة فى عين المومن لخير وأبقى.

لعل أعمق الحكماء والشعراء بين البشرهم المتشائمون الذين يصورون الحياة ألما وشقاء لازما وفاجعة مؤلمة، فمنهم أعظم الشعراء فى العالم. أليسوا الذين وصفوا لنا الألم بصورة يدمى له الفؤاد ؟ أى نظم من شعراء هوميرس (هومر) اليونانى كان أشد أثرا على النفوس ؟ أليس وصفه للحروب الدامية والمغامرات المخيفة ؟ أليست حياة امرئ القيس وعنترة وغيرهم من الجاهليين، والمتنبى مداح الأمراء ظاهرا ورقيق الشعور باطنا وشاعرنا المعرى هى سلسلة من الآلام. ولمادا لاتزال فاجعات سوفوكليس اليونانى الخالدة تؤثر فينا ؟ لولا أنها وجدت صدى فى نفوسنا مستحبا للمأساة روعة خاصة فى النفوس نعلم ذلك من قطع شكسبير، وغوته وراسين وكورنى وغيرهم، وللهزليات تفاهة يزدرى بها. ألا تجد أيها الانسان الرقيق الشعور لو أنك ذهبت الى رواية هزلية مهما كان فيها من فكرة قيمة انك أضعت وقتك سدى ؟ وأى شئ يهزنا مثل المأساة والكوارث الانسانية

(c) http://nidaulhind.blogspot.in

المؤلمة ؟ والرسامون من هم الخالدون ؟ أليس الذين هم صوروا لنا الألم على جليته فن آلام المسيح فى القرون الوسطى ولد فن خاص غذى الفنون الأوروبية قرونا عديدة ، ولا يوجد مؤسس مذهب على الأرض ، مهما كان اتباعه قليلون لم يعرف الألم بعمقه أو لم تكن فيه مسحة بين تشاؤم ؟

الألم هو أكبر الدعاية فى اتباع المذاهب ، فكم ادمى الصليب قلوب كثيرين من اتباع عيسى الخاص ! وكم بكى المسلمون لضرب النبي وأذاه وأى شئ كان أكبر دعاية للشيعة مثل تعذيب الحسن والحسين ! ولوأن شاه العجم ترك مؤسس البهائية وشأنه ولم يصلبه لما قام لمذهبه قائمة !

من الغريب أن نرى انتشار الديانات العالمية الثلاثة من اسلامية ومسيحية وبوذية يتناسب مع شدة المروى عن المؤسس من الألم ، فآلام محمد كانت أقل من آلام عيسى لذلك نجد اتباعه أقل عددا ، وآلام بوذا أكثر من عيسى ، فاتباع الأول ربت على اتباع الثانى ، الالم يحرك العاطفة العميقة ويجعل فى النفس قوة انجذاب الى المتألم شاءت او ابت كانجذاب الحديد نحو المقناطيس .

لا أدرى هل الصدفة جعلت ذلك التناسب بين عدد التابعين والألم (حسب مصادر التى وصلت الينا) . أم أن هناك عوامل أخرى لعبت دورها أيضا ! على كل فنى حياة المتألم الكبير بوذا وفى مقارنتها بآلام حكيم المعرة لعبرة لأولى الألباب .

مقارنة بين حياة بوذا وحياة المعرى

تختلف حياة بوذا عن المعرى اختلافا كليا ، فبوذا كان أميرا و ولى عهد لملك عظيم من ملوك الهند ، بذل والده كل ما فى وسعه ليجعله سعيدا

(c) http://nidaulhind.blogspot.in

منعما مترفا، وكانت كل أسباب السرور والفرح تحيط به : قصر شامخ وعز باذخ، وثروة طائلة من ذهب وفضة وحلى، وخدم مطيع وبساتين غناء، وجنات تسر الناظرين وشعب محب، و وزراء مخلصون، وأهل يريدون للامير كل خير، ومجالس انس لاتنقطع، وحفلات غنائية رائعة، ونجاح فى حياة الغرام لأنه (حسب المصادر) تزوج الأمير الفتاة التى عشقها وهام وجدا بها، ومع ذلك بين احضان تلك النعمة التى يحسدونه عليها آلاف من الناس كان متشائما. هجر قصر والده، مرتديا ثوب المتسولين، زاهدا فى الثروة والمجد، هائما على وجهه فى الغابات والبرارى، مفكرا فى ألم البشر، باحثا عن الحقيقة، ضاربا لنا أكبر المثل بأن التاثيرات الخارجية فقط لاتكون شخصية الانسان. فلو كان ذلك كذلك لكان بعيدا عن روح التشاؤم ولعاش كما عاش أجداده بين عز الملك ولذة الثروة، نعم أن حادثا بسيطا قد قلبه من انسان طروب الى رجل متشائم، وذلك عند رؤيته ميتا ورجلا مريضا، وطيرا قد ضرب بالقوس وهو يتخبط بدمائه. ان هذه المناظر كانت السبب فى تفكيره العميق وفى انقلابه الفجائى. وكم يمر الناس على مناظر هى أشد فاجعة مما رآه هذا الأمير دون أن تترك فى نفوسهم أثرا.

أما المعرى فكما يعرف كل من اطلع على تاريخ حياته، فقد عرف الألم بنفسه فبفقده نور البصر وهو طفل وبموت أبيه وهوصبى يافع وضيق ذات يده وموت أمه وهو فى شرخ الشباب وغير ذلك من الأمور، أصبح متشائما. ومع ذلك فهناك تشابه فى المبدأ، رأى بوذا الألم فى غيره فتألم على البشرية جمعاء، ورأى المعرى الألم فى نفسه فتألم

(c) http://nidaulhind.blogspot.in

لامن أجل ذاته بل من أجل العالم أيضا . ولولا تلك النزعة التشاومية ، لما وجدناهما يتألمان من أجل كل الناس .

كان بوذا فى نعمة عظيمة ، والمعرى بعكس ذلك ، فما ذا يهم بوذا غيره ؟ واذا بكى المعرى فليبك على نفسه ما شاء له البكاء ، وما شأنه وشأن الناس . كان بوذا ايثاريا (أى يؤثر غيره على نفسه) ، وكان المعرى اجتماعيا رغم انفراده وعزله عن الناس ، فجوهره الكريم دل على أن المصيبة ليست مصيبته ، بل هى مصيبة العالم أجمع ، فالوجود هو مأساة فى نظره ، وفى الحقيقة فان كلاهما كانا اجتماعيين . نعم أن بوذا رأى الألم فى غيره ولكن استقراءه أوصله الى معرفة الألم المنتظر كفرد من أفراد البشر ، فتألم على الانسانية ، وان ظهر بوذا أرق احساسا وأبعد نظرا من المعرى ولكنهما فى الحقيقة متفقان فى الجوهر ، وما يدريا لعل المعرى لوكان من أبناء النعمة والسعادة كما كان بوذا لآل اليه الأمر كما آل الى ذلك الحكيم الهندى ، فنفسيته تدل على نفسية تبغى الايثار ، وبعظة قليلة تدرك أمورا جمة ، كما أدرك بوذا أيضا .

هذه هى فى الحقيقة نفسية النبغاء والعباقرة فى العالم ، فهى تعلو فوق نفسها ، متجردة عن أنانيتها ، حادث بسيط ينقلها الى الولوج فى سر العالم ، وسواء أكان المعرى متاثرا فعلا من البوذية أم لم يكن فان كثيرا من أقواله وأفعاله تشبه مؤسس تلك الديانة :

التشاؤم

ان أول ميزة يمتاز بها هذان الحكيمان هى التشاؤم ، فبوذا كان متشائما من الحياة ، والمعرى بمناسبات عديدة أظهر تشاؤمه القاتم :

(c) http://nidaulhind.blogspot.in

عيش وموت وأحداث تبدلها ينوبنا ومهود بين أرحام
أمرحى النوم بعد الفكرصاحبه ومثله لرقاد وارد حام

فالمعرى منذ شبابه كان متشائما ففى سقط الزند نرى ذلك عنه ما يجد الحياة كلها تعبا «تعب كلها الحياة» وعند ما صار كهلا وشيخا زاد تشاؤمه :

متى أنا للدار المريحة ظاعن فقد طال فى دار العناء مقامى
وقد ذقتها ما بين شهد وعلقم وجربتها من صحة و سقام

واناالنرى التشاؤم البوذى يظهرجليا :

سميت نجلك مسعودا وصادفه ريب المنون فأمسى غير مسعود

فطالما الموت هو آخر ما نلق فاقيمة الحياة ؟

هبينى عشت عمر النسر فيها وكان الموت آخر ما لقيت ؟

فرغبة الحياة اذن ناشئة عن جهل :

رغبنا فى الحياة لفرط جهل وفقد حياتنا حظ رغيب

ان هذا التشاؤم من كليهما لمصير كل شئ الى الزوال :

ماأحسب الكوكب المريخ أوزحلا الا أميرين ان طال المدى عزلا

الألم

هذه الروحية التشاؤمية ناشئة عن ألم مضن كما ذكرنا ، واناالنرى الألم كأصل هذا الموجود عند كلى الحكيمين ، فذهب بوذا مؤداه ان الحياة لألم ، والمعرى يقول :

سل الله ربك احسانه [illegible] تالى

(c) http://nidaulhind.blogspot.in

وهذا الألم كما يعتقده كلاهما لاشفاء منه أبدا ، فبوذا يشير الى أم لاتعرف معنى الموت فقدت وحيدها : يعطيها عزاء لذلك ، الحصول على حبة خردل من بيت لايعرف الموت لمداواة ابنها ، والمعرى يقول :

كل يحاذر حتفا وليس يعدم شربه
ويتقى الصارم العضـ ب أن يباشر غربه
والنزع فوق فراش أشق من ألف ضربه

الشر

ما أكثر شرور العالم وما أعظم الخبائث فيها ؟ وأى شاعر من الشعراء أو حكيم من الحكماء لم يحدثنا عن شرور هذه الدنيا وآثامها التى لاتنقطع ؟ وما الشرائع الموجودة فى العالم على اختلاف نزعاتها وتباين اغراضها الا سدود شيدت لتوقف سيول الشرور من أن تطغى .

اذا حدثنا المفكرون عن الشرور ، فقد اتخذ المتشائمون خيوطا جديدة لنسج ثوب تشاؤمهم الأسود الحزين . لذلك وصف بوذا أو بالأحرى البوذيون الذين يتكلمون بلسان امامهم ، شرور العالم المخزية وصفا شائقا . ولعل أجمل وصف ماورد فى وصف « آسيا اللامعة » لمؤلف بوذى مجهول الهوية والمترجم الى الانكليزية من قبل « اروين ارنولد Irvin Arnold » لندن ١٨٨٤ ، من أن مدبر هذا الكون قد تعب من شرور العالم متمنيا أن يقلع الناس عن بغضهم لبعضهم بعضا قائلا : « ما أجمل هذا الكون لو أن جميع مخلوقاته من ذوى عقول وبهائم تحابوا وتصادقوا واقتربوا من بعضهم بعضا دون سفك دماء » وشاعرنا المعرى المتشائم أكثر فى شعره وأثره من ذكر شرور هذا العالم ، فلقد قال فى لزومياته :

(c) http://nidaulhind.blogspot.in

ان الشرور لكالسحابة انحمت لاك السرور كأنه برق خلب

وهي لاتقف عند حد بل تشتعل ولاتهمد :

والشر كالنار شبت ليلها بغضا يأتي على جمرها دهر وما همدا

فالشر في نظريهما طبيعة في الانسان لامندوحة من القضاء على هذا الداء الدفين الكامن في الجبلة الانسانية ، فاذا أردنا القضاء عليه يلزم القضاء على الانسانية نفسها ، أو كمايقول شاعرنا في رسالة الغفران : «واذا اللبيب أنعم النظر لم ير الحياة الاتجذبه الى الطير ، وتحث جسده على السير ، فالمقيم كاخي ارتحال ، لاتثبت الاقضية به على حال ، صبح يبسم ومساء لايلبث معها النساء ، كأنها سيد أضراء ، والعمر ثلة في اقتراء ، وهما على السارح يغيران ، فيفنيان السائمة ويبران » . ويقول في اللزوميات :

أرى أمراء الناس يمسون شرهم اذا خطفوا خطف البزاة اللوامع
وفي كل مصر حاكم فوق وطاغ يحابي في آخس المطامع
يجور فيبقى الملك عن مستحقه فتسكب اسراب العيون الدوامع
ومن حوله قوم كان وجوههم صفا لم يلين بالعيوث الهوامع
عدول لهم ظلم الضعيف سجية يسمون أعراب القرى والجوامع

فالشرور هي طبيعة هذا المخلوق :

متمجسون ومسلمون ومعشر متنصرون وهائدون رسائس
وبيوت نيران تزار تعبدا ومساجد معمورة وكنائس
والصابئون يعظمون كواكبا وطباع كل في الشرور حبائس

(c) http://nidaulhind.blogspot.in

أو :

قد فاضت الدنيا بادناسها على براياها واجناسها
والشر فى العالم حتى التى مكسبها من فضل عرناسها
وكل حى فوقها ظالم وما بها أظلم من ناسها

اذن فان الشر طبيعة هذا الوجود :

وجدت الشر ينفع كل حين ومن نفع به حمل الحسام
وليس الخير فى وسع الليالى فكيف نسومها ما لايسام

أو :

تخير خلقنا والشر طبع فما تحتاج فيه الى اختلاف

فالشر فى نظر حكيمنا المعرى كما عند بوذا قد عم العالمين :

هو الشر قد عم فى العالمين أهل الوهود وأهل الذرا

التعلل بالآمال

نعم أن الدنيا لألم مرير، ولكن أى شئ يزيد هذا الألم فى المتشائمين غير التعلل بالآمال، لأن وراء هذه الآمال لايوجد شئ حقيقى، وهذا ما يسمى بلسان البوذية بعطش الوجود، والمعرى يقول فى الفصول والغايات : «لو أنصفت يا ابن حواء ولمن تنصف، لاعز الناس عليك أعنى نفسك، اذن لا نزجر قلبك، وقصر أملك، وشغلك الحق عن الأباطيل». ويقول فى محل آخر : «غفرانك اللهم، عرفت الدنيا لونفعت المعرفة، وعلمت أنها أخون من الورقاء، وشر العلم علم لا ينتفع به، وفى اللزوميات نقرأ :

(c) http://nidaulhind.blogspot.in

تعلل الناس حتى بالمنى وسما ذوالغور يهدى الى النجدية القبلا
أرى الطريقين من ميت ومن ولد لايخلوان كلا نهجيهما سبلا
فلاتبن لجرى السيل أحبية فالحزم ينزلك الأخياف والقبلا
بلى لجسم وبلوى حلف مصطحب ان قلت لاعند امر عن قال بلا

فكل وعد ما هو الا وعد كاذب :

سحائب مبرقات مرعدات لمهجة كل حى موعدات
وكيف يقام فى أمر مهم ليفعل والمقادر مقعدات

فالحنين الى الأمل يزيد ويفسد الفكر كما اعتقد بوذا وكما صرح المعرى :

أحن الى أمل فاتنى وما للشبوب وعيش الفرا
متى قرقر الهاتف العكرمى هيج شوقا الى قرقرى
وقد يفسد الفكر فى حالة فيوهمك الدر قطر السرا

أو :

كيف أقضى ساعة ممسرة وأعلم أن الموت من غرمائى

الزهد :

ينتج من ترك التعلل بالآمال الزهد ، فكلا الحكيمين ، زاهدين الى أقصى حدود الزهد ، نرى ذلك فى اعتزالهما عن الناس ، وحثهما العالم الى ذلك ، هكذا زهد بوذا وهكذا فعل ابو العلاء :

بجنب الزهو فى الدنيا فلو زهيت غر الغمام لذم القطر اذ نزلا
فأعجب لعود الغوانى لم يخف هرما ولا يراه زمان فى السرى هزلا

(c) http://nidaulhind.blogspot.in

فرغد العيش ظل زائل ، صرح بذلك بوذا ، وقال المعرى فى محلات كثيرة من الفصول والغايات ، وفى ما نشر عن الايك والغصون وفى اللزوميات :

وكيف للجسم أن يدعى الى رغد من بعد مارم فى الغبراء أو أزلا

فالدنيا اذن غرور تغش الجاهل فقط :

ودنياك غر بها جاهل فتبت على كل حال وتب

فكلاهما يحبان الاخشوشان فى العيش والابتعاد عن زخرف الدنيا اما ترك الغناء فقد كان من مذهب بوذا وسلكه المعرى بعد رجوعه من بغداد على مايظهر . أما فى بغداد نفسها (فتذكر المصادر) انه قد سمع قينة تغنى فى دارسابور .

الجد

هذه الأوضاع الكونية ، وهذا الحظ العاثر للانسان المنكود يفضيان به أخذ الحياة بصورة جدية ، فالألم على زعمهما هو الاصل ، وما الشرور الا لتخدير الأعصاب من جراء عدم الانتباه . ان هذه الحقيقة المرة كل من حكيمينا المتشائمين يميلان الى الجد تاركين الهزل وكل ما يبعدهما عن الحقيقة جانبا . كرم جوهرهما فكرمت معه سيرتهما ، فلا غرابة من أجل ذلك أن نرى عند كليهما ثورة عظيمة على الخمر والمخدرات ، لان التمويه فى نظريهما شأن النفوس الصغيرة ، والجرى وراء الحق شأن العظماء من الناس . الدنيا ألم وشرورها كثيرة ، ومع ذلك فتخدير الأعصاب غير جائز :

رعى الله قوما مضى دهرهم وما فيهم أحد يهزل

ويوضح أكثر من ذلك فى بغضه للتدليس :

(c) http://nidaulhind.blogspot.in

اطلبتم أديبا لدى ولم ازل منه أعانى الحجر والتفليسا
ماكنت ذا يسر فاجمعه ولا ذا صحة فأحالف التغليسا
واردتمونى أن أكون مدنسا هيهات غيرى آثر التدليسا

فالمعرى كبوذا أو غيره من الحكماء الخالدين ، بعيدين عن التدليس يؤدون البحث عن الحقيقة وان كانت مرة .

ضد النسل

الدنيا شرور فى نظر الحكيمين ، أو ليس الأوفق ترك الزواج والهرب من المراة مهما خدعتنا ببهرج جمالها . هكذا فعل بوذا ، وهكذا فعل أيضا أبوالعلاء واتخذ ذلك مبدءا له :

وجدت الموت للحيوان داء وكيف أعالج الداء القديما
وما دنياك الا دار سوء ولست على اساءتها مقيما
أرى ولد الفتى عبئا عليه لقد سعد الذى أمسى عقيما
أما شاهدت كل أبى وليد يؤم طريق حتف مستقيما
فاما أن يربيه عدوا واما أن يخلفه يتيما

ان أشعار حكيمنا فى هذا الصدد كثيرة ، وجديرة بأن يخصص لها بحث خاص مستفيض :

نصحتك لا تنكح فان خفت مأثما فاعرس ولا تنسل فذلك أحزم

أو

أنسل اواعقم فالتوحد راحة سيان نجلك والخبيت الناسل

أو

دع آدما لاشقاه الله من هبل يبكى على نجله المقتول هابيلا
ونحن من حدثان الدهر نمترى عجبا ومعشر يقفون النبي تسبيلا

(c) http://nidaulhind.blogspot.in

السلبية

ان هذه السلبية عند بوذا والمعرى لاتقف عند أفكار النسل بل تتعدى الى سلبية فى الحياة الآخرة وفى المدبر لهذه الأكوان . هذه هى سلبية واضحة عند بوذا وغامضة عند المعرى ، أو بالأحرى فان بوذا لم يذكر شيئا واضحا عن حياة الآخرة حسب ما تواتر عنه . وجل ماتعلم عن النيرفانا ، ماهى الافناء للروح على ما يظهر كى لاتعود الى الشقاء الأرضى ، والمعرى لايذكر لنا من ذلك شيئا . وجل ما فى الأمر اننا نجد فيه سلبية من عدم المعرفة الحقيقية بالكيفية ، لا من عدم الاقرار بالوجود اذن رغم اتفاق المعرى وبوذا فى الماهية فى هذه القضية ، بقى شاعرنا العربى أمينا للشرائع السماوية ، أو بتعبير آخر أنه آلف بين دينه الموروث والفكرة البوذية .

أما الاله فأمر لست ادركه   فاحذر لجيلك فوق الارض اخاطا

لأن كل الأقاويل التى نسمعها ماهى الا هذاء :

كأن خطيبا موفيا رأس منبر   يبث هذاء بالكلام المسجع
اذا كان جسمى فى الثرى غيرعالم   فلحدى خير من مبيتى بمهجع

اننا ولاشك نعلم (كما سبق لنا وبينا فى كتابنا لغز أبى العلاء ـ حلب ١٩٤٤) ان المعرى انتقل من شك مبرح الى ايمان عميق ، ولكن مضى عليه حين من الدهر ، كان فيه من الشكاكين ، وقريب من السلبيين يدلنا على ذلك كثير من رسائله ، وكثير من أشعاره ، ولكن متى كان كذلك ؟ ومتى انتقل من حيرة الشك الى برد اليقين ؟ ذلك لاعلم لنا به ، وعلى كل تدلنا وصيته التى أوصاها فى الكتابة على قبره :

(c) http://nidaulhind.blogspot.in

هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد

بأن مسحة من سلبية فى هذا الوجود قد صحبته الى الراحة الأبدية .

أما حياتي فالى عندها فرج فليت شعرى عن موتى اذا قدما

ويوضح أكثرمن ذلك بقوله :

حياة وموت وانتظار قيامة ثلاث أفادتنا ألوف معان

فلا تمهر الدنيا المروءة أنها تفارق أهليها فراق لعان

وكذلك قوله :

أسير عن الدنيا ولست بعائد اليها وهل يرتد قطن الى دجن ؟

أو قوله :

فهل قام من جدث ميت فيخبر عن مسمع أومرأى

فكل شئ فى زعم المعرى مثل بوذا فصيره الى الزوال :

نزول كما زال أجدادنا ويبقى الزمان على مانرى

نهار يضى وليل يجئ ونجم يغور ونجم يرى

ان كنا هنا نرى بعض أقوال نتفق مع ابيقور ، ولكن شاعرنا بعيد بروح عن الابيقورية لعدم توخيه سعادة ، وان كانت سعادة نفسية والذى يتوخاه على مايظهر من كثير من تصريحاته هو العدم المطلق ، ذلك

---

(١) راجع لغز أبي العلاء لمؤلف المقال ، حلب ١٩٤٤ ، ويؤيدنا فى زعمنا المستشرق غيوم ، انظر مقاله فى «العالمان» عدد المعرى الخاص دمشق ١٩٤٤ .

(c) http://nidaulhind.blogspot.in

الهدف الذى يرمى اليه بوذا من قبل . ان فترة الشك عند أبى العلاء تذكرنا بمذهب الشكاكين فى شقاء الفكر اليونانى ـ كما عبر عبدالرحمن البدوى ـ ولكن المعرى لم يكن شكاكا وانما اتخذ الشك مطية للوصول الى اليقين الى أن استقر فى العقل كما صنع ديكارت وأخيرا انتهى بالصوفية على مايظهر .

ضبط النفس

ان دنيا كلها ألم وشرور ، لاتسمح بقتل النفس ولا الاسترسال الى مخدرات ، لأننا لانريد التمويه ، بل معرفة الحقيقة تحتاج الى ضبط النفس بصورة هائلة ، وتوصلا لذلك فقد وضع بوذا فى تعاليمه ضبط النفس ويروى عنه القول المأثور عن سليمان الحكيم «ضبط النفس أصعب من فتح الممالك» . نجد ذلك القول عند المعرى أيضا ، كما أوردنا ذلك فى الشعر الثانى الذى افتتحنا فيه مقالنا هذا أو بتعبير آخر أيضا :

اذا المرء لم يغلب من الغيظ سورة فليس وان فض الصفا بشديد

طبعا لم تكن فضيلة ضبط النفس عند هذين الحكيمين فحسب ، بل هى أيضا عند أكثر الحكماء ومؤسسى الشرائع ، حتى انها عرفت عند قدماء البراهميين قبل أن يعرفها بوذا نفسه ، وعلى كل فهى تنضم أيضا الى وجه التشابه بين الحكيمين وان اتفق أيضا غيرهما معهما بذلك ، فكلاهما يدعوان الى اصلاح الذات قبل اصلاح الغير ، صرح بوذا فى تعاليمه وقال المعرى فى لزومياته :

زع نفسك اليوم واندبها الى حسن فان أطاعت فأدب غيرها وزع

لذلك فتفقد العيوب من الضرورى :

عيوبى ان سألت بها كثير وأى الناس ليس له عيوب ؟

وللانسان ظاهر ما يراه وليس عليه ما تخفى الغيوب

(c) http://nidaulhind.blogspot.in

فالاتزان النفسى يتطلبه بوذا والمعرى :

لا تفرحن بفأل ان سمعت به ولا تطير اذما ناعب نعبا
فالخطب أفظع من سراء تأملها والأمرأ يسر من ان تضمر الرعبا

هذه الشجاعة الأدبية هى التى تنفى خوف الموت :

وجدتك أعطيت الشجاعة كلها غداة لقيت الموت غير هيوب

عمل الخير

ان مفهوم الخير عند المتشائمين يختلف منه عند المتفائلين ، فالمتفائل يعمل الخير تجاه جعل يؤمله ، والمتشائم أما أن يهجر عمل الخير لأنه لايؤمل أجرا على عمله ، وأما أن يعمل لأجل نفسه ، لايتخذه واسطة لغاية ، هذا الاعتبار الأخير يعلى قدر الفضيلة وهكذا يقول المعرى :

واعبدالله لا أرجو مثوبته ولكن تعبد اعظام واجلال
أصون دينى عن جعل أومله اذا تعبد أقوام بأجعال

اذا أمعنا النظر فى فكرة الخير عند بوذا نجدها الى حد ما عند المعرى فبوذا لايقول لك افعل الخير ، بل يقول تجنب الشر ، فلا يقول لك كن عفيفا ، بل يقول دع الشهوة ، فتعاليمه كلها سلبية ، وانما كانت كذلك لعقيدة قائمة فى النفس ، هو أن العمل الايجابى يزيد التكالب على حطام الدنيا وهذا يزيد الشقاء على زعمه . أما الأمور السلبية فهى تنقص الحياة مصدر الألم فى الكون ، وبنقصانها تتخفف الآلام .

لاندرى هل ان فكرة السلبية الرياضية هى أصل هندى ولكن مما لاشك فيه ان فكرة الفراغ أو بألاحرى الفناء الهندى (اللاوجود) هى التى أوجدت الصفر وحلت لغزا كبيرا من الفكر الرياضى ، اذ بدونها

(c) http://nidaulhind.blogspot.in

لايمكننا أن نعقل الاسلوب العشرى فى الحساب الذى ساد العالم أجمع، ونقله علماء العرب عن الهند الى العالم المتمدن[1].

ان مفهوما من هذا القبيل لانجده عند المعرى بتمامه، ولكن وصية بالكتابة على قبره بأن الوجود جناية، يحد مثله الأعلى فى اللاوجود، المثل الاعلى البوذى. رغم أن المثل الأعلى فى اللاوجود. فعمل الخير لايقرنه المعرى بشئ:

فلتفعل النفس الجميل لأنه خير وأحسن لا لأجل ثوابها

فشيخنا لايريد فعل الخير تجاه أجرة يتقضاها، ولايترك الشرخوفا من عذاب يلقاه، فليس هو بتاجريبتغى الربح، ولابعبد يخاف الضرب، وسيان عنده أكان بعد عالمنا المادى عالما آخرام لم يكن، فهو كبوذا يحب السلم، يحب الوئام، يحب الراحة، أما الغاية القصوى التى يسعى اليها فهى لاشئ.

هذه العاطفة الفياضة فى عمل الخير، لاخوفا من عقاب ولاحباقى نيل الثواب، تسوق كلا من الحكيمين المتشائمين لاكرام الضعيف وتفضى الى تساوى الطبقات والرفق بالفقير والمسكين وابن السبيل، نرى ذلك جليا عند بوذا والمعرى أيضا.

أكرم ضعيفك والآفاق مجدبة ولاتهنه ولو أعطيته القوتا

---

(١) راجع بحث التراث الهندى فى الرياضيات العربية، من كتاب شمس الله فى الغرب الذى ظهر أخيرا فى اللغة الألمانية:
ولأجل الدلالة على الفراغ يوضع نقطة
أو دائرة ويسمى هذا الفراغ بـ Sunya أو Sunyabinda
والصفر (0) هو الثقب اي Kha خا.

وما ثورة بوذا على البراهميين من أجل المنبوذين الا من روح أ
الضعيف، وهذه الروح نجدها عند حكيم المعرة كما ذكرنا ذلك عند مقار
له بـ «كانت» فى رسالتنا «لغز أبى العلاء» حلب ١٩٤٤ -

لايقف هذا الأكرام عند الانسان العاقل، بل يتعداه الى الحـ
الأعجم، من اجل ذلك كره كل من بوذا والمعرى الذبح واتخاذ
الحيوان وكل ما يخرج منهما غذاء لهما، فلم يسمحا اكراما للضعيف
اراقة الدماء، وهكذا وضع بوذا فى أول بند من تعاليمه العشر،
القتل، وهكذا فعل المعرى، قائلا فى لزومياته :

غدوت مريض العقل والدين فالقنى   لتسمع أنباء الأمور الصحائـ
فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالما   ولا تبغ قوتا من غريض الذبائـ
ولا بيض أمات ارادت صريحة   لأطفالها دون الغوانى الصرائـ
ولا تفجعن الطير وهى غوافل   بما وضعت فالظلم شر القبائـ
ودع ضرب النحل الذى بكرت له   كواسب من أزهار نبت فوائـ
فما أحرزته كى يكون لغيرها   ولا جمعته للندى والمنائـ
مسحت يدى من كل هذا فليتنى   أبهت لشأنى قبل شيب المسائـ

خلاصة البحث

ان وجوه الشبه اذن ليست بقليلة بين بوذا والمعرى، فهى فى
التشاؤم الى هذا الكون، والاحساس بالألم فى هذا الوجود الآر
ورؤية الشرور فى العالم التعلل بالآمال والزهد لشديد فى الحياة،
الهزل واتباع الجد، واعلان حرب شعواء على مواصلة الحياة من الـ
على حطامها ومتابعتها بالنسل، والفلسفة السلبية، سلبية فى عالم ا
وسلبية فى عالم الغيب التى وان اختلف المعرى مع بوذا فى فروعها
فى أصولهما، فعند بوذا تكاد تكون نفيا مطلقا، وعند المعرى تغلـ

(c) http://nidaulhind.blogspot.in

فى المصير عقلا ، وان كان قلبا من المؤمنين ، ويتفقان أيضا فى ضبط النفس ، ويقتربان فى فكرة الخير والثورة على الظلم والتساوى بين الطبقات واكرام الضعيف بما فيه الحيوان ، ونقد ما سلف .

خاتمة

لا نعلم هل ان هذا التوافق كان صدفة واتفاقا من باب توارد الخواطر أم ان أبا العلاء درس المذهب البوذى فأخذ منه ما راق له أن يأخذ ونبذ منه ماشاء أن ينبذ كما درس غيره من المذاهب ، وان اعترض معترض ان هذه السلبية اقتبسها من المسيحية فنجيب على ذلك بان السلبية المسيحية تختلف عن البوذية ، فتبدأ الأولى بنفى وتنتهى الى ايجاب ، ولكن الثانية فمن نفى الى نفى .

كانت المذاهب الهندية على ما يظهر قد تسربت الى العالم الاسلامى ويرى المستشرق ماكس هورتن اتفاقا كبيرا بين فكرة الفناء الصوفية والنيرفانا الهندية ، وان اختلف الفرع فانها متفقة فى الأصل ، فالصوفى الاسلامى كان يريد الفناء فى الله والمتأمل البوذى كان يبغى الفناء دون الاتحاد بمدبر هذا الكون خلافا للراهب المسيحى ، ويقال ان قصة ابراهيم بن أدهم الذى عاش فى القرن الثامن الميلادى ، والذى قيل أنه ترك الأمارة والعرش وصار صوفيا هى قصة بوذا نفسه منقولة (كما سبق لنا وبينا ذلك فى تعريفنا بمواعظ بوذا فى هذه المجلة) .

من أجل ذلك فلايبعد أن يكون المعرى قد درس البوذية وتأثربها ولعل ذلك قد حدث حين دراسته للصوفية وان كان لها من الناقدين وحين زيارته بغداد .

---

(١) راجع عبداللطيف طيباوى ، التصوف الاسلامى ، بيروت ١٩٢٨ ص ٤٠ ، وما بعدها راجع أيضا :